محاضرات في مقياس : العمارة الرومانية و البيزنطية
سنة الثالة ليسانس
أستاذ المادة : حكيم حميدة

مح رقم 03

الاحتلال البيزنطي لشمال إفريقيا

اعتلى جوستينيانوس الحكم عام 527م عن عمر يناهز أربعين سنة، كان شديد التمسك بالكنيسة الكاتوليكية الأرتوذوكسية، و بالتالي فهو ضدّ كل الملوك البرابرة الذين كان معظمهم من المذهب الأريوسي. كانت مهمته هي تعديل أخطاء أسلافه وإعادة تشكيل حدود الأمبراطورية الرومانية واسترجاع مجدها وممتلكاتها وظلّت هذه الطموحات تراوده باستمرار إلا أنّ الظروف الصعبة التي كان يمرّ بها الكيان البيزنطي جعلت من حلمه أمر جد صعب، خاصة لو أخذنا بعين الاعتبار معاهدة السلم التي أمضيت منذ عهد جنسريق.

ظلّ جوستينيانوس يساير أحداث شمال إفريقيا على أمل حدوث فجوة يمكن اغتنامها

و بالتالي استرجاع أراضي الأسلاف، فتحقق له ذلك.

في تلك الأثناء كان الملك الوندالي هلديريك ينفر من الأمور العسكرية فأسند مهمة حاكم الجيش لابن أخيه هوامر، مما سهل عملية انقلاب على الحكم من قبل غليمار طبقا لعوامل منها السياسة السمحاء التي طبقها هلديريك إزاء الكاثوليك الرومانيين بشمال إفريقيا.إضافة إلى الوضع الأمني المزري بأغلب المقاطعات، إذ أصبح المور يهدّدونهم في عقر ديارهم.

اغتنم جوستينيانوس فرصة الاطاحة بهلديريك واستخلافه بغليمار وأخذ على عاتقه مسؤولية إعادة الملك المخلوع على العرش. فبعث ببرقيات أكّد في إحداهن على ضرورة الأخذ بوصية مؤسس المملكة الوندالية، جنسريق، والتي تنصّ على اسناد الحكم إلى كبير القوم سنّا من الأسرة الحاكمة. لكن غليمار لم يكترث لتلك الرسالة ، ممّا أغضب جوستينيانوس وأصبحت فكرة غزو شمال إفريقيا أمرا حتميا بالنسبة إليه.

من أجل ذلك أمضى الامبراطور جوستينيانوس معاهدة سلم مع ملك الفرس، علما أن الفرس و البيزنطيين كانا منذ عهد جستين الأول (518م-527م) في نزاع حول مملكة

"أيبيريا" التي تشكل دولة حاجزة بينهما، فاتّفق الطرفان في ربيع 532م على إنهاء الخلاف حتى يتفرغ كسرى للمشاكل الداخلية بمملكته، وينقل جوستينيانوس قواته العسكرية من الحدود الشرقية نحو الجبهة الغربية والقضاء على الوندال بشمال إفريقيا، كلّفت هذه الاتفاقية الخزينة البيزنطية مبلغ 11 ألف رطل من الذهب .

عارض أعضاء مجلس جوستينيانوس رغبته في شن حرب على وندال شمال إفريقيا لأسباب منها :

- خوفا منهم من الأضرار التي قد يلحقها بهم الوندال علما أنهم مروا بمحاولات فاشلة من قبل مما جعلهم يخشون الأسطول الوندالي فبالغوا في وصف قوته وقيمته الخارقة.
- الخوف من الظروف المالية الصعبة التي تمر بها الامبراطورية خاصة بعد دفع مستحقات الهدنة مع الفرس، الشيء الذي أفرغ الخزينة العمومية، ولا يمكن فرض الضرائب على المواطنين لتمويل هذه الحرب.
- الخوف من عدم قدرة الجنود من تحمل معارك أخرى في موطن بعيد، بعد معاناة حروب ضدّ الفرس.

رغم تلك المعارضة الشديدة، سعى الامبراطور نحو غزو شمال إفريقيا، بهدف استرجاع عرش هلديريك الضائع، واغتنم فرصة الاضطرابات التي واجهت الملك الوندالي غليمار سواء كانت داخلية بمقاطعات بيزاكينا و الطرابلسية أم خارجية بجزيرة سردينيا مما أضعف الكيان الوندالي.

يرى بروكوب أن العاطفة الدينية هي التي حسمت الأمر، حيث كاد الأمبراطور جوستينيانوس أن يتراجع عن موقفه الرامي إلى استرجاع شمال إفريقيا إلى سلطته، بعد المعارضة التي لقيتها الفكرة. لكن حدث شيء غريب أثّر في نفسيته، حيث أن أسقفا من المشرق قابل الامبراطور وأخبره: "بأنّ الله قد أمره في المنام بأن يتجه إليه ليعاتبه عن تراجعه عن تخليص المسيحيين بشمال إفريقيا من المستبدين وذلك خشية منهم. وأكّد له هذا الأسقف بأنّ الله سيسانده في هذه الحرب ويجعل منه سيدا لشمال إفريقيا".

وفعلا ورغم المعارضة من الأوساط السياسية فإنّ هذه الحادثة حسمت الموقف وعجّل جوستينيانوس بتجهيز الأسطول، فكانت العاطفة الدينية هي التي طغت على المبرّرات السياسية والإستراتيجية.

- الحملة البيزنطية على شمال إفريقيا:

جهّز جوستينيانوس جيشا متكونا من 10.000 جندي من المشاة و5.000 فارس، كلّهم من الجيش النظامي، ومن القوّات المتحالفة. يضاف إليهم 400 جندي من الهيرول و600 جندي من الهون. يحمل هذا الجيش أسطولا كبير العدد يتضمّن 500 مركبة يدفعها 30.000 جدّافا و92 بارجة يدفعها 2.000 جدّافا.

أسندت مهمّة قيادة الجيش إلى الجنيرال بليزار الذي تحنّك في الأمور العسكرية من خلال خبرته في الحرب ضدّ الفرس، وكان يحيط به نخبة من خيرة الفرسان وعددها 1.500 إلى 2.000.

دام الإبحار من القسطنطينية إلى سواحل شمال إفريقيا ثلاثة أشهر عان فيها الجيش البيزنطي من الظروف المناخية الصعبة وتخللت الرحلة عدة محطات سواء في الموانيء للساحل الأدرياتيكي أو في جزر البحر المتوسط وأهمها صقلية، ومن تم أرسل الجنيرال بليزار كاتبه بروكوب ليكشف له مخطّطات الوندال بقصد تفادي حرب بحرية. لكن ذلك لم يحدث نظرا لتواجد أغلبية الأسطول الوندالي في مهمة ، وأن غليمار كان يجهل النوايا العدوانية للبيزنطيين.

توجهّت المركبات إلى شاطئ معزول من الشواطئ الشرقية لتونس و حطت رحالها هناك في شهر سبتمبر 533م. و نظرا لتخوف البيزنطيين من الأسطول الوندالي ففضلوا أن يستكملوا طريقهم برا فقطعوا مقاطعتي بيزاكينا والبروقنصلية برّا وفضلوا مواجهة العدو في اليابسة.

بين بليزار لأهالي شمال إفريقيا أنه من سيحررهم من القمع الوندالي، وحرص على فرض الانضباط لجيشه بتقديم سيرة خلقية حسنة، واحترام الممتلكات و النفوس، كل ذلك من أجل كسب ثقة الأفارقة الذين أصبحوا يمدّونهم بيد المساعدة و يساهمون بتموين الجنود بكل ما لديهم.

عند مقربة قرطاجة بحوالي 45 كلم علم غليمار بأنّ عرشه معرض للهلاك، وبما أنّ الأوضاع الراهنة لا تخدم مصالحه، خطط لمعركة اختار مكان الصراع، وهو موقع آد ديكيموم، قرب خليج تونس.

معركة ديكيموم DECIMUM :

كانت خطة غليمار تهدف إلى محاصرة الفرق البيزنطية في موقع آد ديكيموم، المحددة في خليج تونس على بعد 15 كلم من قرطاجة. كما أمر هذا الملك أخاه آماتاس بقتل هلديريك وكل الذين سجنوا معه والالتحاق بمكان المعركة لإتمام عملية الخناق على العدو.

و خطط لمحاصرة الموقع على النحو التالي : آماتاس من الجهة الأمامية، غليمار من الجهة الخلفية في حين تتم المضايقة من الجناح الأيسر من قبل غيباموند ابن أخيهما.لكن لم تسير الأمور كما خطط لها إذ وصل آماتاس في وقت متقدم ولم يتموقع في المكان المتفق عليه، وتقاتل مع طليعة الجيش البيزنطي بقيادة يوحنا القبدوقي Jean de Cappadoce، فأسقط أثنى عشر من أبرز المقاتلين البيزنطيين ولقي حتفه في المعركة تاركا جنوده يفرّون في فوضى عارمة، وتابعهم يوحنا القبدوقي وقضى عليهم إلى أن وصلوا إلى أبواب قرطاجة.

ومن جهة أخرى، لم ينج غيباموند من وحدة الهون، وهي إحدى الفرق المساعدة والمتحالفة للجيش البيزنطي، المتكونة من 600 جندي التي سحقت ألفي جندي ونداليِ. وحسم بليزار الوضع بانتصاره على غليمار وجيشه في آد ديكيموم، رغم أنّ الكرة الأولى كانت لصالح الملك الوندالي الذي سيطر على زمام الأمور بسحقه الفرق المتحالفة البيزنطية إلاّ أنّ رؤية جثة أخيه أماتاس جعلته يتراجع عن الهجوم ليتفرّغ لدفنه والبكاء عليه، الشيء الذي ساعد بليزار في تنظيم صفوفه وإعادة الكرة ، وانتصر على الوندال الذين فرّوا متخذين طريق نوميديا.

دخل بليزار إلى قرطاجة في 15 سبتمبر 533م معزّزا نفوذه بالأسطول الذي اتّبع خطواته، كما حرص على أمن المدينة وتأمين أملاك سكّانها، ودخل إلى قصر غليمار و جلس على العرش باسم أمبراطوره جوستينيانوس ليجسّد هنا الخطوة الأولى لاسترجاع أكبر رموز الأمبراطورية الرومانية بشمال إفريقيا.

معركة تريكا ما روم :

بينما كان بليزار منشغلا بإصلاح وإعادة الاعتبار للسور الحامي لمدينة قرطاجة، اهتمّ غليمار بجمع نفوذه في نوميديا، وفضلا على الرعويين الأفارقة الذين

انضمّوا إلى قضيته مقابل مبالغ مالية، التحق بهم أخوه تزازون العائد من سردينيا. بلغ عدد الجيش الوندالي 5.000 جندي .

اقترب الجيش الوندالي من قرطاجة بحوالي 26 كلم نحو الغرب بموقع تريكا ما روم واقتصرت الخطة على عزل أهل المدينة بمنع الدخول على القوافل التي تموّنها وقطع المياه الصالحة للشرب بالسيطرة على القنوات التي توصلها . والمنتظر من هذه الخطة هو إرغام الجيش البيزنطي إلى الخروج من قواعده لمواجهته في مكان يتكيف مع خطّته الحربية.

لمّا تأكد بليزار أنّ مدينة قرطاجة أصبحت محصّنة خرج في 15 ديسمبر 533م إلى موقع تريكا ما روم والتقى فيها الطرفان. استطاع القائد يوحنا الأرميني بمساندة فرسان الفرقة الخاصة لبليزار بخرق صفوف الجيش الوندالي وقتل تزازون وتراجع باقية الجيش إلى معقله.

ولمّا أدرك غليمار أنّ عدوّه على مشارف مخيمه، فرّ خفية رفقة أقاربه من غير أن يشعر جيشه بهذه الخيانة. وتذكر المصادر، أنّه التجأ إلى جبل بابووا Pappua الذي يصعب تحديده بالتدقيق. كلّف بليزار قائده فاراس بمحاصرة المكان ورجع هو إلى تسيير أمور البلاد من قرطاجة. ودام هذا الخناق ثلاثة أشهر عانى فيهم غليمار من الجوع والحرمان وقساوة برد فصل الشتاء، وفي نهاية شهر مارس 534م سلّم نفسه بعد تلقيه ضمانات.

أبحر بعدها بليزار إلى القسطنطينية ومعه الرمز الأول والأخير للسلطة الوندالية، فعرض الملك المخلوع على الأعيان في حفل إستعراضي وسجد غليمار للأمبراطور جوستينيانوس الذي صفح عنه ومنحه أملاك في غالاتيا بآسيا الصغرى.

من المؤكد أنّ سقوط المملكة الوندالية أصبح أمرا فعليا بعد سقوط هذا الرمز السياسي وأصبحت الراية البيزنطية ترفرف على المقاطعات التي كانت خاضعة للوندال. ولمّا صاح جوستينيانوس بعد النصر في معركة تريكا ما روم :" أنّ الله أعاد إليه إفريقيا بجميع مقاطعاتها " فإنه يجهل إلى حدّ كبير الحقائق التي تطرح على الواقع الإفريقي.

كما تجدر الإشارة أنّ جيش بليزار، عكس الجيوش الرومانية السابقة، كان يجهل تماما طبيعة منافسه وكذا جغرافية البلاد. فليست له الخبرة الكافية تمكنه من تجاوز هذه العقابات، فهو يكتشف لأول مرّة حضارة مغايرة لمخلفاته الحضارية الشرقية، فهو يسير نحو المجهول بدلا من أن تكون هذه العودة إلى الوطن الذي سلب منه

وإن كان التيار الدوناتي بشمال إفريقيا قد تراجع فهذا لم ينقص من عزيمة الأفارقة في المطالبة بالقوة إسترجاع ممتلكاتهم. وكان عناد الأهالي أشدّ صرامة من القوى الوندالية الزائلة، فصادف البيزنطيون شدائد لم تكن في الحسبان لاسيما أنّ ملوك المور أعلنوا ولاءهم للأمبراطور البيزنطي خلال الحروب الوندالية. لكن انقلبت الأوضاع عام 534م أي سنة فقط بعد قدوم المستعمر الجديد و أشتعلت لهيب الثورات المورية في عدة مقاطعات واقتصرت أعنف المعارك على مقاطعتي بيزاكينا ونوميديا.

وبرّرت الإمارات المورية هذا الموقف العدواني وتراجعهم عن المعاهدة التي وقّعوها مع الجنيرال بليزار، بعدم وفاء هذا الأخير بعهوده فلم تتلق هذه القبائل أيّة مصالح، كما كان للمجاعة التي مسّتهم في تلك السنة دافعا لا يستهان به للنزوح إلى السهول والمراكز الحضرية لأخذ ما يسدّ حاجتهم.

ثورات الممالك المورية :

أنهى القائد بليزار حروبه ضدّ الوندال ورجع إلى القسطنطينية محملا بغنائم و كنوز وفئة من الوندال وصل عددهم إلى 2.000 رجل، بعثوا إلى الحدود الشرقية للأمبراطورية مكونين خمسة أفواج عسكرية لقبوا « VANDALI JUSTINIANI »، ولعل أغلى و أكبر هدية حملها بليزار إلى أمبراطوره كانت الملك غليمار، بعد ذلك مباشرة ثارت الإمارات المورية في كل من بيزاكينا ونوميديا حيث أكّدت المصادر أنّ 50.000 موري كانوا يحاربون تحت قيادة أربعة أمراء وهم: كوتزينا وأسديلاساس وأيوفروتاس ومدسينيساس، وبفضل عددهم الكبير قضوا على الفرسان البيزنطيين. أثّرت هذه الحادثة على نفسية سكان قرطاجة و أسندت مهمة التحكم في الأمور إلى القائد صولومون الذي أجمع بين السلطة العسكرية بصفته القائد الأول، والسلطة المدنية كونه الحاكم أو الوالي على كل الإدارة الإفريقية. و من أجل تسهيل مهمته في إخماد هذه الثورات عزّز نفوذه، القائد بليزار بعدد كبير من الجنود والضبّاط كما وفّاه الأمبراطور بجيش ثاني، فوصل جيش صولومون إلى ثمانية عشر ألف مقاتل لمواجهة الخطر الموري الذي يحاصره من عدة جوانب.

ثورة سهل ماما:

عزز صولومون بالبعض من جنده حماية العاصمة قرطاجة وتوجه بأغلبيتهم إلى سهل ماما حيث واجه القوّات المورية التي لجأت إلى استعمال خطة القبائل الجمالة. حيث احتمت هذه الأخيرة بحشد كل أفراد القبيلة من نساء وأطفال داخل حلقة متكونة من الجمال. وبمجرد قدوم الفرسان البيزنطيين و احتكاكهم بالجمال أفزعت الخيول وتراجعت إلى الخلف ، الشيء الذي أحدث فوضى في الصفوف البيزنطية وساعد في أول الأمر مهمة المور في قتل عدوهم.

استرجع صولون زمام الأمور بالتخلي عن الخيول وخوض المعركة على الأقدام محتميا بالدروع، فخرق الجدار الدفاعي للمور وانقلب مسار المعركة، إذ استطاع من قتل 200 جمل والقضاء على 10.000 موري، ولو أنّ هذا الرقم مبالغ فيه الشيء الأكيد أنّ النصر كان حليف صولومون ولذّ بالفرار معظم المقاتلين المور تاركين وراءهم أملاكهم ونساءهم وأطفالهم.

ثورة بورغاوون:

الفوز الساحق الذي حققه صولومون في معركة سهل ماما لم يطفئ نيران الحرب ولم يهدئ الموريين ولم يتركوه ليتنعّم في قرطاجة. فاضطر في الشهور الأولى من عام 534م إلى خوض معركة ثانية حيث علم بغزو المور لبيزاكينا، فتحرك الجيش البيزنطي إلى مرتفعات بورغاوون وبفضل حيلة صولومون استطاع أن يقهر الموريين الذين تجنبوا المعركة في السهول والتحصن في أعالي الجبال. يذكر بروكوب أن خطة صولومون المتمثلة في حصر العدو من قمة الجبل ومن سفحه أعطت فوزا عظيما إذ أنّه لم يقتل أي جندي بيزنطي ولم يصب أحد بأذى وبالمقابل تم القضاء على 50.000 مقاتل موري واعتقل البعض منهم كما قبض على الملك أسديلاساس. أمّا العناصر التي استطاعت الفرار لجأت إلى نوميديا لتحمى بالملك إيابداس، وأصبحت العناصر الأخرى تحت سلطة الملك أنطلاس حليف البيزنطيين في تلك الفترة.

<u>الحملات الحربية على الأوراس :</u>

كانت سلسلة جبال الأوراس في نفس الفترة مسرحا لأحداث دامية فلم يهدأ الملك إيابداس في شن غارات على المدن الموجودة بنوميديا و تلك الموجودة بالحدود مع بيزاكينا، انحاز بعض أمراء المور إلى القوة البيزنطية ليكونوا السند في مواجهة إيابداس وهذا راجع لخلافات شخصية. فكان أورطاياس متخوفا من عملية توسيع نفوذ إيابداس بنوميديا، بينما أراد مازونا بأخذ ثأر موت أبيه، هذه الأسباب جعلتهم يضغطون على صولومون بشنّ حملة عسكرية للقضاء على منافسهم، فكانت حرب طويلة وشاقة استلزمت حملتين تخللتهما أزمة داخلية كاد صولومون أن يكون ضحية مؤامرة من جنده.

<u>الحملة الأولى:</u>

اختلف الباحثون في نقطة انطلاق الحملة ومكان التقاء الجيشان، وتشير العديد من الأدلّة على أنّ منطلق الحملة الأولى على الأوراس كان من نواحي مدينة تيمقاد، بحيث يلحّ عليها بروكوب كثيرا في وصفه لهذه الحملة، أضف إلى ذلك أنّ صولومون جعل من ممتلكات أورطاياس التي تضم منطقة تيمقاد كقاعدة للسير نحو عدوه إيابداس.

فمن هذه المدينة كان الاتجاه نحو الشرق ولتفادي مرتفعات جبل شيليا اتبع مسلك يشق فج "قم كرازة" ليصل الجيش إلى واد تامقرة الذي يشرف عليه جبل الجحفة. ومن المرجح أن يكون هذا الجبل هو الذي ذكره بروكوب. وتبلغ المسافة 70 كلم من تيمقاد إلى الجحفة وهي المسافة التي قطعها جيش صولومون في هذه الحملة الأولى على الأوراس.

انطلق صولومون في نهاية عام 535م من مخيمه المحايد لواد أميقاس وظلّ يطارد إيابداس في المنطقة الأوراسية، وعمد هذا الأخير على التراجع وعدم مواجهة خصمه في السهول و جره إلى المسالك الوعرة. ورغم شكوك صولومون في ثقة أورطاياس إلاّ أنّه اعتمد عليه في حملته الأولى على الأوراس، فكان بمثابة المرشد للجيش البيزنطي.

بعد سبعة أيام من المطاردة لم يستطع صولومون القبض على أعدائه ولا حتى الالتقاء بهم، وعند وصوله إلى جبل آسبيدوس ASBIDOS بالقرب من واد دائم الجريان وجد به قلعة قديمة انتظر بجوارها جيش إيابداس طيلة ثلاثة أيام. فلم يحرك ساكنا هذا العدو الخفي، ممّا أدّى إلى ضعف الجيش البيزنطي خاصة بعد نفاد مؤونته، لذا كان من الضروري إخلاء المكان والعودة إلى مراكزه الدفاعية.

في هذه الحملة لم يتسنّ لصولومون القضاء على جيش إيابداس الذي كان يقدر بـ 30.000 جندي، و حين وصوله إلى قرطاجة باشر إلى إعداد حملة ثانية يستثني فيها دعم حلفائه الموريين.

<u>حركة تمرد الجيش البيزنطي:</u>

في ربيع 536 واجهت صولومون صعوبات نابعة من غضب جنوده فلم يتسنّ في الخوض لحملة ثانية على الأوراس، اختلفت الأسباب التي نمت هذا الغضب، ويمكن تلخيصها على النحو التالي:

- إرادة الجنود في امتملاك الأراضي، التي كانت بأيدي الوندال خاصة وأنّهم تزوجوا بالونداليات اللّواتي يطالبن بحق الملكية التي كانت بحوزة آبائهم أو أزواجهم الأوّلين. لقيت هذه المطالب معارضة من طرف صولومون الذي برّر موقفه كون الأراضي ملكية للأمبراطور.

- سوء معاملة صولومون لجنوده وضبّاطه، واستحواذ كبار القادة على الغنائم والأراضي باسم الأمبراطور.

- التأخر الكبير في دفع رواتب الجنود.

- الإجراءات التي اتخذت في المجال الديني أدّت إلى تأجج النار. فمن جهة حرّم العناصر الوندالية ذات المذهب الأريوسي من الوظائف الدينية في الكنائس بعد ارتدادهم عن دينهم الأصلي وانضمامهم إلى الكنيسة الكاثوليكية الأرثوذكسية، وأصدر الأمبراطور من

جهة أخرى مرسوما في 1 أوت 535 ينصّ على رسمية المعتقد الكاثوليكي في شمال إفريقيا يقر بإخلاء أماكن العبادة سواء كانت وثنية أو دوناتية أو أريوسية أو يهودية ليتم تحويلها إلى كنائس تقام فيها الشعائر الكاثوليكية الأرثوذوكسية أغضبت هذه القرارات التعسفية الأفراد الوندالية الذين أحسّوا بمرارة الاضطهاد الديني، وكان البعض منهم ينتمون إلى فرق من الجيش البيزنطي وبطبيعة الحال انضموا إلى الفئة المحتجة والمطالبة بالإمتيازات.

انطلاقا من هذه الأوضاع اتفق المتمردون في أول الأمر خفية لاغتيال القائد الأعلى صولومون في يوم عيد الفصح بالكاتدرائية بقرطاجة، إلاّ أنّ هذا المشروع باء بالفشل، نظرا لتماطل منفذي العملية، حيث لاذت بالفرار مجموعة من الجنود الذين كانت لهم صلة بالمؤامرة، وبقيت المجموعة الأخرى المتمردة في قرطاجة مدّة أربعة أيّام، غير أنها ثارت في اليوم الخامس مسببة أعمال الشغب وقتل العديد من المناصرين للحاكم البيزنطي. ففرّ على إثر هذه الأحداث صولومون وكاتبه بروكوب إلى سيراكوزا بصقلية ووجدوا بها القائد بليزار

فرّ المتمردون إلى نوميديا واضطر بليزار إلى العودة إلى القسطنطينية تاركا الحكم لضابطين ساميين، لكن وبمجرد مغادرته البلاد وذهاب صولومون إلى القسطنطينية، شهدت مقاطعة نوميديا، ربّما في صائفة 536، أحداثا استطاع القائد ستوتزاس ببراعة الألفاظ المقنعة أن يضمّ إليه أغلبية الجيش البيزنطي المتمركز في نوميديا وقتل الضبّاط.

عيّن الامبراطور جوستينيانوس قريبه جرمانوس لإعادة الحكم والهدنة بشمال إفريقيا، وللوصول لهذا الغرض أعطيت له كلّ الصلاحيات في إدارة هذه الأزمة. وحين وصوله إلى قرطاجة أسرع في إعادة تنظيم الجيش باعتماده على سياسة لينة مع جنوده، واتّخذ قرارات تدفع إلى اكتساب ثقة أفراد الجيش. وكونه الوسيط الوحيد المباشر للأمبراطور توعد بالعفو على كل من هجر الوحدات البيزنطية ودفع الرواتب بأكملها للذين كانوا في حالة تمرد، كان لهذه الإجراءات الفضل الأكبر لعودة الكثير من الجنود إلى وحداتهم العسكرية،

لاحق هذا القائد القوّات المورية وأرغمها على معركة في موقع سيلاس فتاري الواقع في حدود بين مقاطعة البروقنصلية ونوميديا. وهزم ستوتزاس في ربيع 537 وفرّ إلى مقاطعة موريطانيا مع بعض العناصر الوندالية التي ظلّت وفيّة له.

استطاع جرمانوس التحكم في الوضع الأمني رغم التمرد الثاني في عام 537 والنّاجم هذه المرّة من أحد الحرّاس المقرّبين إليه الذي أثار غضب بعض الجند حين تأخرت رواتبهم، لكن صرامة جرمانوس أوقعت المتمرّدين في مكيدته واستدرك خلال عامين الأمن والهدوء النسبي بشمال إفريقيا.

الحملة الثانية على الأوراس:

استدعي جرمانوس من طرف الأمبراطور إلى القسطنطينية عام 539 واسترجع صولومون منصبه كحاكم على شمال إفريقيا، فعمل على استرجاع ثقة الأمبراطور بتحكّمه على الوضع الأمني وإطاحته بالمقاومة المورية بالأوراس. فبعد رجوعه إلى قرطاجة أعاد هيكلة الجيش وأقرّ بعزل كل الجنود الذين يشك في وفائهم، وجنّد في مكانهم أشخاصا يستخلفونهم في وحداتهم العسكرية، كما طرد من المقاطعة العناصر الوندالية وخاصة النساء اللّواتي كان يعتبرها مصدر الفتنة التي نشبت في صفوف الجنود.

وبعد تحصين المدن نظّم حملته على الأوراس في خريف 539 واستهلها من نواحي مدينة بغاي واحتل أحد قادته و هو غونتاريت سهول هذه المنطقة، فألحق بها إيابداس هزيمة والتجأ غونتاريت إلى معسكره.

كاد هذا الأخير أن يغرق مع جنده بعد أن حول مجرى الواد أبيقاس من طرف الموريين إلى مخيم البيزنطيين. تدخل صولومون بأعجوبة واستدرك الوضع لصالحه وتغلّب على القوّات المورية التي كانت تتألف من عدد كبير من المقاتلين يشمل جيش إيابداس والوافدين من القبائل المهزومة لمقاطعة بيزاكينا والعناصر الوندالية.

تراجع إيابداس إلى مرتفعات الجبال وهو يقود 20.000 مقاتل مفضلا الاعتماد على نفس الخطة الحربية التي وفّرت له النجاح في الحملة الأولى على الأوراس عام 535. وتتمثل في جذب العدو إلى داخل الجبال الأوراسية ليقهره بمحاصرته وضعف قواته حتى يقطع عليه سبل التموين. قصد إيابداس مكانا محصّنا طبيعيا يدعى زربولي، وبات ينتظر خصمه صولومون الذي بعد فترة من التربص له اتّجه إلى ضواحي تيمقاد لنهب المحاصيل الزراعية حتى يرعب إيابداس. اغتنم هذا الملك هذا الظرف ليلتحق بموقع تومار ليتحصّن به.

كان الحصار صعبا أثناء فصل الصيف وذلك لنقص المياه والأشياء الأساسية، لكن كان الحظ هذه المرّة بجانب صولومون، إذ استطاع بعض جنوده – بفضل مهارتهم- تسلّق

الجبل وخرق الخطوط الدفاعية المورية التي انهزمت وفرّ إيابداس رغم جروحه إلى مقاطعة موريطانيا.

وإذا كانت نقطة الانطلاق للحملة الأولى على الأوراس فيها بعض من الشك، فالأمر مخالف للحملة الثانية، لأنّ المصادر تتفق على أنّ صولومون انطلق في 539 من بغاي ليلتحق بإيابداس في موقع زربولي الذي لم يحدد بالتدقيق، ومن المرجح أن يكون بين ملتقى النهرين لواد العرب وواد ملاقو. إذ أشير إليه من طرف بعض الباحثين كونه يحتوي على مجمع سكني كبير ذات محيط غير محدد

أما تومار فهو الموقع الأخير الذي يؤكد موريزو أنّه يقع بالضبط في قرية تابردقة في الجهة الجنوبية لجبل شرشار، وهو مبني في قمة الجبل في وضعية دفاعية، يحيط به واد بجر ثم تليه مرتفعات شديدة الانحدار، وهذا ما يتوافق مع وصف بروكوب.

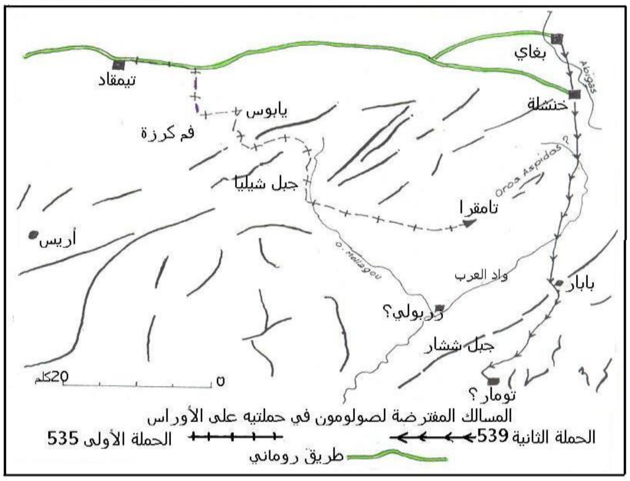

المسالك المفترضة لد

في حملتيه الحربية ع

المؤسسة الإدارية البيزنطية بشمال إفريقيا

حظيت شمال إفريقيا من قبل الإمبراطور جوستينيانوس على إطار مؤسساتي، يشمل الجوانب السياسية والإدارية والعسكرية حين تم استرجاعها من الوندال. فعقب انتصار بليزار على الملك غليمار، كان على السلطة البيزنطية النظر في الوضعية الجديدة لشمال إفريقيا.

كان حلم جوستينيانوس استرجاع كل ممتلكات روما الضائعة و ثم الحرص على دوام حضارة أجداده، لكن رهانات زمانه كانت تخالف كثيرا الوضع الذي كانت عليه شمال إفريقيا في القرون السابقة. فتراجع الإرث الروماني من عدة أقطار نتيجة لتراجع خطوط الليمس الذي واجه عدة أزمات من كل الجوانب والتي تم حصرها في الجانب التاريخي.

اكتفى البيزنطيون بالتمركز في المقاطعات التي كانت تابعة للسلطة الوندالية. فمقاومة المور أجبرتهم على الدفاع و التحصن في نقاط محدودة تتقدم تارة، وتتراجع تارة أخرى.

استنبطت المؤسسات البيزنطية بشمال إفريقيا أحكامها و تصوراتها من النظام الروماني السابق لها، فتعاملت بنفس القوانين المعمول بها خلال الفترة الرومانية. وأوجدت ديناميكية جوستينيانوس، حين استرجع المقاطعات الضائعة، تطورات و تحولات لها علاقة بوقائع تاريخية استلزمت التكيف معها بإنشاء ترسانة من القوانين لتنظيم المغرب القديم للجوانب الإدارية والعسكرية.

ويمكن التمييز بين مرحلتين فيما يخص تسيير أمور شمال إفريقيا: فالمرحلة الأولى تتمثل في إعادة تنظيمها من طرف الإمبراطور جوستينيانوس، و بينما تضمنت المرحلة الثانية النظام الجديد الذي مسها إعادة هيكلة تسييرها في إطار نظام الآرخوينة من طرف الإمبراطور موريس.

1. **<u>فترة الإمبراطور جوستينيانوس:</u>**

أول إنجاز قام به هذا الإمبراطور يتمثل في ترقية المغرب القديم إلى ولاية بأتم معنى الكلمة بعدما كان ملحقا كمقاطعة لولاية إيطاليا في فترة الإمبراطورية السفلى، وعلى هذا الأساس نظمت العلاقات الجديدة بين القسطنطينية وشمال إفريقيا.

وهذا النظام القانوني الجديد سوف يعطيها ميزة جديدة كسلطة إقليمية يشرف عليها حاكم سام، وهذا شرف لها كونها تكتسي الآن نفس الأهمية للولايات الأخرى باحتضانها على حكومة مركزية. كما يعتبر هذا أيضا مسؤولية للدور الكبير الذي يجب أن تقوم به في تموين الإمبراطورية بخيراتها الزراعية أو عن طريق الضرائب المختلفة. ولعل السبب الآخر الذي

يفسر هذه الترقية هو محاولة استرجاع ثقة الأهالي بإعطائهم حق الافتخار لعزتهم الغير محدودة.

لذلك أصدر جوستينيانوس مرسومين في 13 أفريل 534 م، وجه الأول إلى الحاكم الإداري بإفريقيا، آركيلوس موضحا التشكيلة الإدارية لشمال إفريقيا. و المرسوم الثاني قصد بليزار ليشرف على الإدارة العسكرية كونه كان قائدا للأركان في الجيش.

قسمت ولاية إفريقيا إلى سبع مقاطعات لها إدارة مركزية تتوسط بين مختلف الإدارات المقاطعات الأخرى، وهي التي تتحاور بصفة رسمية مع السلطة السياسية بالقسطنطينية، ولذلك استوجب الأمر أن يكون مقر الحاكم السامي بقرطاجة.

أ) **<u>الإدارة المركزية:</u>**

كانت مقاطعة البروقنصلية تحت إشراف الإدارة المركزية، تظم في قرطاجة المباني الرسمية المخصصة للحاكم السامي وديوانه. ونص مرسوم جوستينيانوس على تقسيم شمال إفريقيا إلى سبعة أقاليم، يسير البعض من طرف حكام برتبة قنصل، والبعض الآخر من طرف ولاة أو بما يعرف بالعمداء، وضمت جزيرة سردينيا إلى ولاية إفريقيا

يعود أصل هذه التقسيمات إلى فترة الإمبراطورية السفلى، وعوض أن يكون التسيير من قبل بروقنصل، أسندت هذه المهمة إلى حاكم سام و هو بمثابة وال يمثل مصالح الإمبراطور، له إدارة تحرص على السير الأمثل لكل المقاطعات.

وضعت الإدارة المركزية تحت سلطة الحاكم السام، فكانت تتكون من عدد بالغ من المكاتب، يشتغل فيها 396 موظف، و هو عدد يقارب عدد الموظفين العاملين في الإدارة

خلال القرن الرابع. كما كان الحاكم السامي يعين من طرف الإمبراطور ، وهو بصلة مباشرة به.

إذن الحاكم السامي يسير مجموعة من الأقاليم الواسعة الأرجاء، تمتد من الطرابلسية شرقا إلى جزر الباليار غربا و كذا كورسيكا و صقلية، ووصل به الحد أن يسير الجزء الجنوبي من إسبانيا في بعض المراحل التاريخية.كما تقتضي مهامه أيضا اختيار كل الموظفين الذي يعرض مؤهلاتهم على الإمبراطور، و ينتظر منه الموافقة أو الرفض في تعيين إطارات الدولة، و من ثم استغلالهم في خدمتها بتوظيفهم في أحد المكاتب الكائنة في قرطاجة. وتنوعت مهام الحاكم السامي بتنوع الوزارات التي كان يمثلها :

- في مجال التشريع و القانون هو الذي يسهر على نشر و تطبيق الأحكام الصادرة من الإمبراطور. وإن هذا الأخير كان يمثل المصدر الوحيد للسلطة التشريعية.
- كونه يمثل السلطة التنفيذية بإيصال المعرفة القانونية لأعضائها وما أصدر منها "كقانون جوستينيانوس و مجموعة من القرارات القانونية، و أسس القوانين و الاتفاقات الجديدة" إلى كافة الناس حتى يدركوا الصياغة الجديدة في تسيير أمور شمال إفريقيا و إعادة تنظيمها.
- كان الحاكم السامي يترأس المحاكم لأنه القاضي الأعلى للجهاز القضائي. بما أن القانون كان في يده، فهو المؤهل في الفصل في الأمور المتعلقة بالقضايا المدنية والجنائية و يستقبل الشكاوي و يسير التحقيق، وحكمه لا يرد.

- في إطار تسيير الشؤون المالية، يبقى الشغل الشاغل للإدارة البيزنطية هو جمع كل الضرائب والمستحقات من الأفراد القاطنة في مناطقها، وقد تدفع هذه الضرائب بالعملة أو على شكل أنونة. فالحاكم السامي هو الذي يحدد النسب والمقادير المعتمد عليها في تقييم الضرائب و يكلف المحاسب ومساعديه بجمع الضرائب.

وتتلخص المهام الأخرى للحاكم السامي في الحرص على إدارة ممتلكات الإمبراطور والحفاظ على أموال الخزينة.

بفضل مداخيل الضرائب المعتبرة تمكن من تولية عناية المكاتب الإدارية التابعة للرقابة العسكرية، فليس من صلاحياته تعيين القادة والضباط، لكن كان على عاتقه دفع رواتبهم و مستحقات الجند و توفير المؤونة لهم. و كان يمول المشاريع التحصينية للمدن ببناء المنشآت العسكرية والدفاعية ،وهذا بواسطة مكتب متكون من 20 موظفا يتكفلون بالأشغال العمومية.

كانت الإدارة على صلة متواصلة مع الكنيسة وممثليها من رجال الدين، في حين يبقى الحاكم السامي هو الرقيب على ممارسة العبادات، ولا تعفى الكنيسة من الضرائب على ممتلكاتها.

حظيت أيضا قرطاجة بنظام صحي متكون من خمسة أطباء و إطار تعليمي يضم خطيبين سفسطائيين و معلمين في قواعد اللغة.

ب) الإدارة الجهوية:

تضمن مرسوم جوستينيانوس الذي الذي سنه بعد انهيار المملكة الوندالية مايلي:" منطقة شمال إفريقيا متكونة من سبع مقاطعات من بينها تينجي Tingi والإقليم المسمى بالروقنصلية، وتسير قرطاجة وبيزاكينا والطرابلسية من قبل حاكم من رتبة قنصل، بينما المقاطعات الأخرى: نوميديا و موريطانيا وساردينيا يسيرون من قبل الولاة."

تضمن النص قراءة خاطئة لكلمة Tingi وهذا حسب الباحثين، وتم إقرار من خلال الدراسة للباحث دوفال ن. أنه لابد من تعويض كلمة Tingi بلفظة Zeugi و ذلك استنادا إلى الفقرة الكاملة:

يأمر مرسوم جوستينيانوس بأن يكون على رأس الطرابلسية حاكم برتبة قنصل، وحاكم عادي في نوميديا بعد أن كانت الأمور عكس ذلك قبل قرار شتاء 534 لهذا الإمبراطور. و يفسر بروكوب هذه الوضعية كون البروقنصلية وبيزاكينا و الطرابلسية كانت خاضعة تماما للنظام البيزنطي. السيطرة البيزنطية لا تشمل كل أقاليم المغرب القديم، وفشلت سياستها الرامية إلى بسط نفوذهم حسب نفس تخطيط أسلافهم، بل تراجع سلطانهم من الجهة الغربية للمغرب القديم و اقتصر وجودهم على الاحتفاظ ببعض المواقع الساحلية كسبتة بموريطانيا الطنجية ليؤمنوا الممر المؤدي إلى إسبانيا، والقيصرية (شرشال) كميناء كبير منذ القدم ليستعينوا به في الأمور الاقتصادية. أما الأراضي الداخلية فقد احتكرها أهلها الأصليين منذ الفترة الوندالية.

يتجلى من خلال الوظائف لحكام المقاطعات أنهم كانوا يمثلون سلطة الحاكم السامي، و يقتبسون منه كل الصلاحيات. فهو الذي يرشحهم إلى هذه المناصب الهامة، و للإمبراطور الحرية لمدهم كامل التغطية الشرعية و السياسية. ويتدخلون في كل شؤون مقاطعاتهم حتى يضمنوا السير الحسن للمؤسسات، و تعددت وظائفهم بتعدد المهمات المنوطة لهم، وتضمنت مصالحهم كذلك إدارة يشتغل بها خمسون موظفا. فضلا عن السير العادي للإدارة التي يتكفل أعضاؤها بالمجالات المعروفة على الإطار المركزي و التي تتضمن في العلاقة بين الفرد و ما يهمه في مجال العدالة و القانون. من جانبهم يسهر القضاة على حفظ الأمن العام و الممتلكات بتطبيق صارم للقوانين، كما لا يخفى على الساهرين على العصب الحيوي والمتمثل في الأمور المالية والاقتصادية وخاصة تلك المتعلقة بجمع الضرائب على شتى أشكالها، و يساهمون كذلك في متابعة تسيير أمور المدن ببناء معالم مدنية و عسكرية مكرسة للإمبراطور أو الحاكم السامي. و غالبا ما يتم توظيف حكام المقاطعات من بيئتهم الأصلية، و في بعض الحالات بضغط من الطبقة الأرستقراطية و رجال الدين.

يفهم من ذلك أن الطبقة الثرية والمتكونة من النبلاء و كبار التجار والقسيسين والطبقة المثقفة لهم حق الترشح لنيل هذه المناصب الهامة.

ويبقى الحاكم السامي هو سيد الموقف في تعيين ممثليه لإدارة الأقاليم الخاضعة له، ولكن وعند ظهور نظام الآرخونية أصبحت الوظائف العسكرية هي المسيطرة على كل

النظام المؤسساتي، في حين تدحرجت وظائف ممثلي إدارة الأقاليم الخاضعة للحاكم السامي إلى أدنى مستوى.

يقوم تسيير أحوال المقاطعات تحت نظام جهوي على استغلال الموارد البشرية القاطنة في المدن والتابعة للسلطة البيزنطية.